

حياة أعظم الرسل

مَرَضُ الرَّسُولِ وَمَوْتُهُ

مَرَضُ الرَّسُولِ وَمَوْتُهُ

إِشْتَدَّ الْمَرَضُ عَلَى الرَّسُولِ ، وَارْتَفَعَتِ
الْحَرَارَةُ ، وَاشْتَدَّ بِهِ الْوَجَعُ ، فَقَالَ ، أَرِيقُوا
(صُبُّوا) عَلَى سَبْعِ قَرَبٍ مِنْ آبَارِ شَتَّى
(مُخْتَلِفَةٍ) ، حَتَّى أَخْرُجَ إِلَى النَّاسِ فَأَعْهَدَ
إِلَيْهِمْ (أَوْصِيَهُمْ) . فَنَفَّذَ أَمْرَهُ ، وَصَبَّ عَلَيْهِ
الْمَاءُ ، حَتَّى جَعَلَ يَقُولُ : حَسْبُكُمْ
(كَفَاكُمْ) حَسْبُكُمْ .

وَهَذِهِ أَوَّلُ مَرَّةٍ يَشْتَدُّ فِيهَا الْمَرَضُ عَلَى
الرَّسُولِ . وَمَعَ مَا كَانَ يُحْسُّ بِهِ مِنْ
شِدَّةِ الْأَلَمِ وَالْمَرَضِ خَرَجَ ، حَتَّى جَلَسَ
عَلَى الْمِنْبَرِ ، ثُمَّ قَالَ : « إِنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ

خَيْرُهُ اللَّهُ بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ . فَاخْتَارَ
مَا عِنْدَ اللَّهِ .

فَفَهِمَ أَبُو بَكْرٍ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرِيدُ
نَفْسَهُ فَبَكَى ، وَقَالَ : بَلْ نَحْنُ نَفْدِيكَ
بِأَنْفُسِنَا وَأَبْنَائِنَا .

فَقَالَ الرَّسُولُ : « عَلَى رِسْلِكَ (مَهْلًا)
يَا أَبَا بَكْرٍ » . ثُمَّ قَالَ : « أَنْظِرُوا هَذِهِ
الْأَبْوَابَ الْمُؤَدِّيَةَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَسُدُّوهَا ، إِلَّا
بَابَ (بَيْتِ) أَبِي بَكْرٍ ؛ فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ أَحَدًا
كَانَ أَفْضَلَ فِي الصُّحْبَةِ عِنْدِي يَدًا (نِعْمَةً)
مِنْهُ . وَإِنِّي لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنَ الْعِبَادِ خَلِيلًا
(صَدِيقًا) لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا . وَلَكِنْ

صُحْبَةً وَإِخَاءَ إِيْمَانٍ حَتَّى يَجْمَعَ اللَّهُ بَيْنَنَا
عِنْدَهُ .

فَسَدَّتْ جَمِيعُ الْأَبْوَابِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى
الْمَسْجِدِ إِلَّا بَابَ أَبِي بَكْرٍ .

إِمَارَةً أُسَامَةَ وَأَبِيهِ مِنْ قَبْلِهِ دَرَسَ فِي
(الدِّيمُقْرَاطِيَّة) :

لَقَدْ أَرَادَ الرَّسُولُ الْعَظِيمُ أَنْ يُقَدِّمَ لِلْعَالَمِ
الْإِسْلَامِيِّ دَرْسًا فِي الْمُسَاوَاةِ
وَ (الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ) ، فَجَعَلَ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ —
بَعْدَ أَنْ جُعِلَ حُرًّا — رَئِيسًا لِلجَيْشِ ، فَمَاتَ
شَهِيدًا ، فَجَعَلَ ابْنُهُ أُسَامَةُ قَائِدًا لِلجَيْشِ فِي
فِلَسْطِينَ وَسِتَّةَ عَشْرُونَ سَنَةً بَدَلًا مِنْ أَبِيهِ ، مَعَ

وَجُودٍ عَدَدٍ مِنْ كِبَارِ الْمُهَاجِرِينَ ، وَعُظْمَاءِ
الْأَنْصَارِ ؛ لِيُعْطِيَهُمْ دَرَسًا فِي وَضْعِ الرَّجُلِ
الصَّالِحِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَصْلُحُ لَهُ ، وَلَوْ كَانَ
شَابًّا ؛ لِكِفَايَتِهِ الْمُتَمَازَةَ ، مِنْ غَيْرِ تَفْكِيرٍ فِي
سِنٍّ أَوْ نَسَبٍ أَوْ لَوْنٍ .

إِسْتَوْصُوا بِالْأَنْصَارِ خَيْرًا :

وَبَعْدَ أَنْ نَزَلَ عَنِ الْمِنْبَرِ قَالَ : يَا مَعْشَرَ
(جَمَاعَةُ) الْمُهَاجِرِينَ ، إِسْتَوْصُوا بِالْأَنْصَارِ
خَيْرًا ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يَزِيدُونَ ، وَالْأَنْصَارَ عَلَى
هَيْئَتِهَا لَا تَزِيدُ . وَإِنَّهُمْ كَانُوا عَيْبَتِي (خَاصَّتِي
وَمَوْضِعَ سِرِّي) الَّتِي أُوتِيتُ (نَزَلْتُ) إِلَيْهَا ،

فَأَحْسِنُوا إِلَى مُحْسِنِهِمْ ، وَتَجَاوَزُوا
(إصْفَحُوا) عَنْ مُسِيئِهِمْ . ثُمَّ سَكَتَ ،
وَسَكَتَ النَّاسُ ، كَانَ عَلَى رُءُوسِهِمُ الطَّيْرُ .

خُطْبَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَرَضِ

مَوْتِهِ :

وَمَعَ شِدَّةِ مَرَضِهِ خَطَبَ فِي النَّاسِ ،
وَعَرَضَ نَفْسَهُ عَلَيْهِمْ لِيَقْتَصَّ مِنْهُ مَنْ أَرَادَ ، مَعَ
أَنَّهُ كَانَ مَعْصُومًا مِنَ الْخَطَا ، طَاهِرًا كُلَّ
الطَّهَارَةِ ، فِي حَيَاتِهِ وَأَخْلَاقِهِ ، وَأَقْوَالِهِ
وَأَفْعَالِهِ ، وَقَدْ فَهِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ خُطْبَتِهِ

وَنَصَائِحِهِ وَوَصَايَاهُ أَنَّ الْأَجَلَ قَدْ قَرُبَ ، بَعْدَ
أَنْ أَدَّى الرِّسَالَةَ كَامِلَةً ، وَنَشَرَ الدِّينَ
الْكَامِلَ ، وَأَتَمَّ اللَّهُ عَلَيْهِ نِعْمَتَهُ . ﴿ أَلْيَوْمَ
أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ
نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ .

فَلَمَّا اشْتَدَّ مَرَضُ الرَّسُولِ خَافَ الصَّحَابَةُ
وَالْمُسْلِمُونَ ، وَاضْطَرَبَتْ نُفُوسُهُمْ ،
وَحَزِنَتْ قُلُوبُهُمْ . وَفِي أَثْنَاءِ مَرَضِهِ الشَّدِيدِ
كَانَ الْمُصْطَفَى يُفَكِّرُ فِي أَحْوَالِ الْمُسْلِمِينَ ،
وَفِي الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَفِي جَيْشِ أُسَامَةَ ،

وَيُفَكِّرُ فِي الْأَنْصَارِ بَعْدَ مَوْتِهِ . وَلِتَنْفِذِ أَمْرَ
الرَّسُولِ جَهَّزَ النَّاسُ الْجَيْشَ ، وَخَرَجَ
أُسَامَةُ ، وَخَرَجَ جَيْشُهُ مَعَهُ ، وَأَقَامَ أُسَامَةُ
وَالنَّاسُ بِالْمُعَسْكَرِ قُرْبَ الْمَدِينَةِ ؛ لِيَنْظُرُوا
مَا يَقْضِيهِ اللَّهُ فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ .

الرَّسُولُ فِي حَيَاتِهِ :

لَقَدْ تَعَبَ الرَّسُولُ كَثِيرًا فِي حَيَاتِهِ ، فَقَدْ
وُلِدَ يَتِيمًا ، وَتَرَبَّى يَتِيمًا ، وَلَكِنَّ عِنَايَةَ اللَّهِ
كَانَتْ تَرْعَاهُ دَائِمًا . وَمَكَثَ بَعْدَ الرِّسَالَةِ ٢٣
سَنَةً فِي تَعَبٍ وَجِهَادٍ لِدَعْوَةِ النَّاسِ جَمِيعًا

إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ ، وَنَشَرِ الْإِسْلَامِ .
وَبَذَلَ مَجْهُودًا لَمْ يَبْذُلْهُ أَحَدٌ قَبْلَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ
— فِي سَبِيلِ الْقَضَاءِ عَلَى عِبَادَةِ الْحِجَارَةِ
وَالْأَصْنَامِ وَالْكَوَكِبِ . وَقَاسَى (تَعَبَ)
كَثِيرًا مِنَ الْوَأَنِ الْعَذَابِ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ
وَالطَّائِفِ ، وَمِنْ مُؤَامَرَاتِ الْيَهُودِ فِي كُلِّ
مَكَانٍ ، وَلَكِنَّهُ صَبَرَ وَاسْتَمَرَ يَدْعُو بِإِيمَانٍ
قَوِيٍّ — إِلَى دِينِ اللَّهِ ، سِرًّا وَجَهْرًا ، بِإِرَادَةٍ
لَا تَعْرِفُ التَّرَدُّدَ ، حَتَّى نَصَرَهُ اللَّهُ نَصْرًا
وَاضِحًا ، وَدَخَلَ النَّاسُ جَمَاعَاتٍ فِي
الْإِسْلَامِ ، وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ،

مُعَلِّينَ إِيْمَانَهُمْ بِاللّٰهِ الْوَاحِدِ الْاَحَدِ ، وَرَسُولِهِ
الْمُصْطَفَى الْعَظِيمِ .

فِي الْيَوْمِ التَّالِي لِخُطْبَةِ الْوَدَاعِ :

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي لِخُطْبَةِ الْوَدَاعِ حَاوَلَ
الرَّسُولُ أَنْ يُصَلِّيَ بِالْمُسْلِمِينَ كَعَادَتِهِ ، فَلَمْ
يَسْتَطِعْ لِشِدَّةِ مَرَضِهِ ، فَقَالَ : « مُرُّوا
(يَجِبُ أَنْ تَأْمُرُوا) أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ
بِالنَّاسِ » . فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ
وَالرَّسُولُ مَرِيضٌ .

مَاذَا فَعَلَ بِسَبْعَةِ دَنَانِيرَ كَانَتْ عِنْدَهُ ؟

وَكَانَ عِنْدَ الرَّسُولِ قَبْلَ مَرَضِهِ سَبْعَةُ
دَنَانِيرَ ، فَلَمَّا أَفَاقَ مِنْ إِغْمَائِهِ سَأَلَ عَائِشَةَ :

مَاذَا فَعَلُوا بِهَا ؟ فَأَجَابَتْ عَائِشَةُ أَنَّهَا عِنْدَهَا .
 فَطَلَبَ مِنْهَا إِحْضَارَهَا ، فَأَحْضَرَتْهَا ، ثُمَّ
 قَالَ : مَا ظَنُّ مُحَمَّدٍ بِرَبِّهِ لَوْ لَقِيَ اللَّهَ وَعِنْدَهُ
 هَذِهِ ؟ ثُمَّ وَزَّعَهَا عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ
 قَبْلَ وَفَاتِهِ (مَوْتِهِ) فِي الْيَوْمِ الَّذِي اخْتَارَهُ
 الرَّفِيقُ الْأَعْلَى (اللَّهُ) :

وَفِي يَوْمِ الْإِثْنَيْنِ الَّذِي اخْتَارَهُ اللَّهُ فِيهِ إِلَى
 جِوَارِهِ ، خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ ، وَهُمْ
 يُصَلُّونَ الصُّبْحَ ، وَهُوَ عَاصِبٌ رَأْسَهُ ،
 وَأَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ ، فَكَادَتْ عُقُولُ
 الْمُسْلِمِينَ تَذْهَبُ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ ، بِتَحَسُّنِ

صِحَّةِ الرَّسُولِ ، حِينَ رَأَوْهُ ، وَفَرِحُوا وَزَالَ
 مَا كَانَ عَنْدهُمْ مِنَ الْغَمِّ ، فَعَرَفَ أَبُو بَكْرٍ أَنَّ
 النَّاسَ لَمْ يَصْنَعُوا ذَلِكَ إِلَّا لِرَسُولِ اللَّهِ ، فَرَجَعَ
 عَنْ مَكَانِ صَلَاتِهِ ، فَأَشَارَ الرَّسُولُ لِيَسْتَمِرَّ فِي
 صَلَاتِهِ ، وَقَالَ : « صَلِّ بِالنَّاسِ » وَجَلَسَ
 الْمُصْطَفَى إِلَى جَنْبِهِ ، فَصَلَّى قَاعِدًا عَنْ يَمِينِ
 أَبِي بَكْرٍ ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ ، كَلَّمَ
 النَّاسَ ، وَتَبَسَّمَ سُورًا لِمَا رَأَى مِنْ هَيْئَةِ
 الْمُصَلِّينَ فِي صَلَاتِهِمْ .

وَظَنَّ الْحَاضِرُونَ أَنَّ الرَّسُولَ قَدْ شُفِيَ مِنْ

مَرَضِهِ .

وَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ، إِنِّي أَرَاكَ قَدْ
أَصْبَحْتَ كَمَا تُحِبُّ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ .
الصُّحُوءُ قَبْلَ الْمَوْتِ بِقَلِيلٍ : وَقَدْ فَرِحَ جَمِيعُ
الْمُسْلِمِينَ فَرَحًا لَا نِهَايَةَ لَهُ بِمَا ظَهَرَ مِنْ
تَحَسُّنٍ كَبِيرٍ فِي صِحَّةِ الْمُصْطَفَى . وَهَذِهِ
هِيَ الصُّحُوءُ الَّتِي تَحْدُثُ قَبْلَ الْمَوْتِ بِقَلِيلٍ .
وَفَاةُ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ مِنَ الْمَسْجِدِ ، وَاضْطَجَعَ
فِي حِجْرِ عَائِشَةَ . وَأَحَسَّتْ أَنَّ الْمُصْطَفَى
يَثْقُلُ فِي حِجْرِهَا . فَنَظَرَتْ فِي وَجْهِهِ ،
فَوَجَدَتْهُ قَدْ فَتَحَ عَيْنَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ :

« بَلِ الرَّفِيقُ الْأَعْلَى مِنَ الْجَنَّةِ » .

قَالَتْ عَائِشَةُ خَيْرُكَ اللَّهُ فَأَخْتَرْتَ مَا عِنْدَهُ .

وَمَاتَ رَسُولُ اللَّهِ وَهُوَ فِي حِجْرِهَا .

فَوَضَعَتْ رَأْسَهُ عَلَى وَسَادَةٍ . وَكَانَ ذَلِكَ فِي

يَوْمٍ شَدِيدِ الْحَرَارَةِ ، فِي يَوْمِ الْإِثْنَيْنِ الثَّانِي

عَشَرَ مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ بَعْدَ تَمَامِ عَشْرِ سَنَوَاتٍ

لِلْهِجْرَةِ (٨ مِنْ يُونِيَّةِ سَنَةِ ٦٣٢ مِيلَادِيَّةٍ) .

مَاذَا حَدَثَ بَعْدَ الْوَفَاةِ ؟

سَمِعَ الْمُسْلِمُونَ بِمَوْتِ الرَّسُولِ ، فَلَمْ

يُصَدِّقُوا ؛ لِأَنَّهُمْ رَأَوْهُ فِي الصَّبَّاحِ فِي صِحَّةٍ ،

رَافِعًا صَوْتَهُ وَهُوَ يَخْطُبُ فِي الْمَسْجِدِ . وَلَمْ

يُصَدِّقُ عُمَرُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ مَاتَ . فَكَانَ
 الْمُسْلِمُونَ فِي ذُحُولٍ وَاضْطِرَابٍ ، وَالتَّفُؤِ
 حَوْلَ عُمَرَ ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَمُتْ ؛
 لِأَنَّهُ كَانَ بَيْنَهُمْ مُنْذُ وَقْتٍ قَصِيرٍ ، يُصَلِّي ،
 وَيَخْطُبُ ، وَيُوصِي بِالْأَنْصَارِ خَيْرًا ،
 وَيَنْصَحُ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَيَدْعُو لَهُمْ ، وَيَطْلُبُ
 مِنْهُمْ أَنْ يَقْتَضُوا مِنْهُ إِنْ كَانَ قَدْ أَلْحَقَ بِهِمْ
 ضَرًّا .

مَوْقِفُ أَبِي بَكْرٍ بَعْدَ وَفَاةِ الرَّسُولِ :
 دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ فِي بَيْتِ
 ابْنَتِهِ عَائِشَةَ ، وَرَسُولُ اللَّهِ مُغَطَّى بِثَوْبٍ ،

فَقَبَّلَهُ وَقَالَ : أَفْدِيكَ بِأَبِي وَأُمِّي . مَا أَطْيَبَكَ
حَيًّا ، وَمَا أَطْيَبَكَ مَيِّتًا ! ثُمَّ رَدَّ الْبُرْدَ
(الثَّوبَ) عَلَى وَجْهِ الْمُصْطَفَى ، ثُمَّ خَرَجَ
وَعُمَرُ يَقُولُ لِلنَّاسِ : « إِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ
يَمُتْ » . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : مَهْلًا يَا عُمَرُ ، ثُمَّ
خَطَبَ قَائِلًا : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ
لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ
وَرَسُولُهُ ...

أَيُّهَا النَّاسُ ، مِنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ
مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ
حَيٌّ لَا يَمُوتُ . ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ وَمَا
مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ (مَضَتْ) مِنْ

قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى
 أَعْقَابِكُمْ (رَجَعْتُمْ إِلَى الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ)
 وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ (وَمَنْ يَرْتَدَّ عَنِ
 الْإِسْلَامِ) فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ، وَسَيَجْزِي
 اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿٥﴾ .

فَعَلِمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّ الرَّسُولَ قَدْ انْتَقَلَ إِلَى
 الرَّفِيقِ الْأَعْلَى ، فِي عَالَمِ الْخُلُودِ بَعْدَ أَنْ
 أَدَّى رِسَالَتَهُ كَامِلَةً ، وَكَوَّنَ خَيْرَ أُمَّةٍ
 أَخْرَجَتْ لِلنَّاسِ . وَلَنْ تَمُوتَ آثَارُهُ
 الْخَالِدَةُ ، وَمَبَادِئُهُ السَّامِيَّةُ ، وَأَفْعَالُهُ
 الْعَظِيمَةُ ، وَأَحَادِيثُهُ الشَّرِيفَةُ .